عمرة القضاء

في ذي القعدة سنة
(٧ هـ. ـ ٦٢٧م)

محمد سليمان

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾[١].

العمرة لغة ـ بضم العين وسكون الميم وفتح الراء ـ: الزيارة.. جمعها عمر بضم العين وفتح الميم، وعمرات بضم كل من العين والميم. ومنه المعتمر بضم الميم وسكون العين وفتح التاء وكسر الميم الثانية: الزائر والقاصد للشيء ومن يؤدي العمرة، ومنه اعتمر فلان أي زار وقصد وأدى العمرة..[٢]

وهذه أي العمرة شرعاً: قصد الكعبة للنسك المعروف..[٣]

عُمر رسول الله ﷺ

تحدثنا بعض المصادر التاريخية أنّ رسول الله ﷺ اعتمر أربع مرات (وفي من لا

---

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) أنظر مصادر اللغة والقاموس الفقهي.

(٣) نفس المصادر.

يحضره الفقيه: واعتمر عليه السلام تسع عمر..) كلها كانت في ذي القعدة من أشهر الحج التي هي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وهو داخل إلى مكة، وإنه لم يحفظ عنه أنه اعتمر في السنة إلّا مرة واحدة، وأنه لم يحج إلّا مع عمرته الأخيرة في حجة الوداع:

إحداها: عمرة الحديبية، وكانت في ذي القعدة عام الحديبية سنة ست من الهجرة فَصَدَّهُ المشركون عن البيت، فنحر وحلق حيث صُدَّ، وحلَّ. وحسبت له ولمن معه عمرة.

والثانية: عمرة القضاء، وكانت في ذي القعدة سنة سبع؛ حيث قضاها في العام المقبل من صلح الحديبية.

والثالثة: عمرته التي قرنها مع حجته في ذي القعدة سنة ثمان عند فتح مكة.

والرابعة: عمرته من الجِعْرَانة مع حجته وكان إحرامها في ذي القعدة وأعمالها في ذي الحجة.. وقول: إنّ عمرته من الجعرانة حيث قسم فيها غنائم حنين. وعمرة مع حجته..

وقال بعضهم: إنما اعتمر النبي صلى الله عليه وآله هذه العمر في ذي القعدة لفضيلة هذا الشهر ولمخالفة الجاهلية في ذلك، فإنهم كانوا يرونه من أفجر الفجور... ففعله صلى الله عليه وآله مرات في هذه الأشهر ليكون أبلغ في بيان جوازه فيها وأبلغ في إبطال ما كانت الجاهلية عليه والله أعلم[1].

وبما أنّ عمرة القضاء هي محل كلامنا نقف عندها تفصيلاً.

أسماء عمرة القضاء

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء، لأن المشركين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وآله عام الحديبية عن البيت الحرام، فكان مجيئه في العام التالي قضاءً عما فاته من عمرة

(١) صحيح البخاري (٤١٤٨)؛ صحيح مسلم (١٢٥٣)؛ وانظر النووي في شرحه وصحيح الترغيب. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٥٩.

الحُدَيْبِيَّة. أوسميت بعمرة القضاء، لأنها وقعت حسب المقاضاة و صدور القضاء بين الطرفين وليس من القضاء الذي هو ضد الأداء؛ لأن العمرة التي سبقت وتحللوا منها على الحدود اعتبرت لهم عمرة واعتبرت لهم غزوة، والعمرة الثانية كانت مستقلة، وكانت ـ بناءً على اشتراط الطرفين ـ أن يأتي النبيﷺ في العام المقبل، وأن تخلي لهم قريش مكة، فجاءوا ودخلوا المسجد الحرام.

وسميت بعمرة الصلح للمصالحة التي وقعت في الحديبية.

وسميت بعمرة القضية أي: لما تقاضوا به في الصحيفة التي كتبت بين الطرفين،

وسميت بعمرة القصاص، لأنهم صدوا رسولﷺ في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست، فاقتصّ رسول اللهﷺ منهم فدخل مكة في ذي القعدة في الشهر الحرام الذي صدّوه فيه من سنة سبع. وبلغنا ـ والقول لابن هشام في سيرته ـ عن ابن عباس أنه قال: فأنزل الله في ذلك ﴿ **وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ** ﴾[1].

وفي المغازي عن ابن عباس: خرج رسول اللهﷺ في ذي القعدة سنة سبع بعد مقدمه بأربعة أشهر، وهو الشهر الذي صدّه المشركون، لقول الله عز وجل ﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ** ﴾ يقول: كما صدوكم عن البيت فاعتمروا في قابل.

وفي أسباب النزول للواحدي عن قتادة أنه قال: أقبل نبي اللهﷺ وأصحابه في ذي القعدة حتى إذا كانوا بالحديبية صدّهم المشركون، فلما كان العام المقبل دخلوا مكة فاعتمروا في ذي القعدة، وأقاموا بها ثلاث ليال، وكان المشركون قد فخروا عليه حين ردّوه يوم الحديبية فأقصه الله منهم، فأنزل: ﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ..** ﴾ الآية.

وفي مجمع البيان: «إنه الشهر الحرام على جهة العوض لما فات في السنة الأولى، ومعناه الشهر الحرام ذو القعدة الذي دخلتم فيه مكة واعتمرتم وقضيتم

(١) البقرة: ١٩٤.

منها وطركم في سنة سبع بالشهر الحرام ذي القعدة الذي صددتم فيه عن البيت ومنعتم عن مرادكم في سنة ست ﴿ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ قيل فيها قولان: أحدهما إن الحرمات قصاص بالمراغمة بدخول البيت في الشهر الحرام قال مجاهد: لأن قريشاً فخرت بردها رسول اللهﷺ عام الحديبية محرماً في ذي القعدة عن البلد الحرام، فأدخله الله مكة في العام المقبل في ذي القعدة فقضى عمرته وأقصه بما حيل بينه وبينه، وهو معنى قتادة والضحاك والربيع وعبد الرحمن بن زيد، وروي عن ابن عباس وأبي جعفر الباقر مثله..».

فهي عمرة القصاص كما جاء به التنزيل، وهي أولى بها لقوله تعالى: ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ.. ﴾[1].

إذن فهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقَضِيَّة، والصُّلح، والقصاص.

وعدان مباركان!

إن عمرة القضاء كانت ـ ولا شك ـ تصديقاً إلهيّاً لوعدين، وهي أيضاً بشرى عظيمة بصدق هذين الوعدين ووقوعهما، تزفها السماء للمؤمنين بتحقيق آمالهم بدخولهم المسجد الحرام آمنين ملبين... ثم تحقق وعد الله وبشرى السماء الكبرى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفىٰ بِاللهِ شَهِيداً ﴾ وهو ما تحقق فعلاً؛ فقد ظهر لا في المدينة ومكة ولا في الجزيرة العربية وما حولها وقبل أن ينتهي نصف قرن حتى ظهر الإسلام في امبراطوريتين كبيرتين تحيطان الجزيرة العربية، كل بلاد الفرس والقسم الأعظم من بلاد الروم، وفي الهند والصين وفي غير هذه البقاع...:

الوعد الأول: وعد رباني، فقد وعد الله به رسوله الكريمﷺ من دخول مكة المكرمة والطواف بالبيت الحرام..

---

(١) الروض الأنف ٢: ٢٥٤.

الوعد الثاني: وعد نبوي، فقد وعد به النبيﷺ صحابته من دخول مكة والطواف بالبيت الحرام..

بعد أن رأىﷺ في منامه أنه قادم إلى البيت معتمراً، فأخبر أصحابه، فخرجوا معه وكان هذا سنة ٦ هجرية في ذي القعدة.. وما أن علم المشركون بمجيئهم حتى استكثروا على أنفسهم أن يدخل محمدﷺ وأتباعه عليهم مكة عنوة وبدون إذن ولا علم منهم، وعدّوا ذلك تجاوزاً لهم ولهيبتهم ومكانتهم عند العرب وعدم مبالاة بوجودهم وسيادتهم...، فخرجوا ليصدوا المسلمين عن البيت الحرام، فلما علمﷺ أن المشركين قد خرجوا ليصدوهم من الطريق المعهود قال:

«من رجل يدلّنا على الطريق بعيداً عن مواقعهم؟»

فقام رجل وقاد الركب إلى أن وصلوا إلى الحديبية من غير الطريق المعروف للمار إلى مكة، والحديبية تبعد عن مكة تسعة أميال، وهي اسم بئر قريبة من طريق جدة وبقرب من البئر شجرة تمت تحتها بيعة الرضوان بعد أن صدّ رسول اللهﷺ عن العمرة وصالح كفار قريش وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وتقع الحديبية على مشارف حدود الحرم، فنزلوا بخيامهم في الحل، وكانوا يصلّون الصلوات في الحرم؛ لأنه ليس بينهما فاصل كبير..

﴿فَتْحاً مُبِيناً﴾ و ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾[1].

وصلح الحديبية ينطبق عليه هذان الوصفان ﴿مُبِيناً، قَرِيباً﴾

هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين بل أكثرهم، فعن الفتح الأول ـ كما يذكر القرطبي في تفسيره ـ نسب القول إلى رسول اللهﷺ أنه قال عن صلح الحديبية:

«بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا»

ويقول قتادة: الحديبية. وقال جابر: ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية،

(١) الفتح: ١، ٢٧.

وقال مجاهد: هو منحره بالحديبية وحلقه رأسه.. وكان فتح الحديبية آية عظيمة. والصلح من الفتح كما قاله الضحاك..

ويقول محمد عزة دروزة: «ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق، بل إنه ليصح أن يعدّ من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده، أو بالأحرى من أعظمها، فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلّتهم إزاء الغزاة. ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب، الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر. وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون، بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبُعد مداه.

وقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبيﷺ فيما فعل، وأيده فيه القرآن، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه. وإذ قووا في عيون القبائل، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة، وإذ صار العرب يفدون على النبيﷺ من أنحاء قاصية، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها، وكان في ذلك النهاية الحاسمة، إذ جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً».

وأختصر ما يفصله سيد قطب عن صلح الحديبية حيث يعبر عنه بأنه:

الفيض الإلهي على رسولهﷺ: فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز...

يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها، وتبرك الناقة، ويتصايح الناس: خلاءت (بركت) القصواء

فيقول: «ما خلاءت. وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياه»..

ويسأله عمر بن الخطاب في حمية: فلم نعطي الدنية في ديننا؟

فيجيبه: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني»...

ويعبر عنه أيضاً أنه: كان فتحاً في الدعوة.. وكان فتحاً في الأرض... وكان فتحاً في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها.

يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

ويقدّم ابن هشام الدليل حيث يقول: والدليل على قول الزهري أن رسول اللهﷺ خرج إلى الحديبيّة في ألف وأربعمئة في قول جابر بن عبد الله. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف..

وأما عن ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ يقول القرطبي في تفسيره:...قال مجاهد: هو صلح الحديبية، وقاله أكثر المفسرين. ثم يذكر قول الزهري: ما فتح الله في الإسلام أعظم من صلح الحديبية...

يقول السيد صاحب الميزان عن هذين الفتحين:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾: كلام واقع موقع الامتنان، وتأكيد الجملة ونسبة الفتح إلى نون العظمة وتوصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذي

يمتنّ به.

ثم يواصل كلامه مرجحاً الرأي القائل: إنه صلح الحديبية حيث يقول: والمراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيهﷺ من الفتح في صلح الحديبية...

وإن كان هذا واحداً من الأقوال في المراد من الفتح الوارد في الآية: فبعض ذهب إلى أن المراد به فتح مكة، وبعض ذهب إلى أنه فتح خيبر، وقيل: الفتح المعنوي.

ولكن السيد لا يرجح هذه الأقوال؛ لأن سياق الآيات والقرائن لا تساعدها..

«ومن هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية (٢٧ الفتح) فتح الحديبية؛ فهو الذي سوّى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين ويسّر لهم ذلك ولولا ذلك لم يمكن لهم الدخول إلا بالقتال وسفك الدماء ولا عمرة مع ذلك، لكن صلح الحديبية وما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل. ومن هنا تعرف أن قول بعضهم: إن المراد بالفتح القريب في الآية فتح خيبر بعيد عن السياق، وأما القول بأنه فتح مكة فأبعد»[1].

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى فيها سورة الفتح، وتم فيها الصلح والاتفاق بين المسلمين والمشركين، وكانت بنود هذا الصلح هي أهم معالمها، وما عمرة القضاء إلا النتيجة الأهم أو الحدث الأهم الذي أعقب ذلك الصلح وهي نتيجة لبند من بنوده.

ففي السنة السابعة للهجرة النبوية الشريفة وفي شهر ذي القعدة الحرام وبعد انتظارٍ دام قرابة سبع سنوات، وبعد أن أبرم رسول اللهﷺ صلح الحديبيّة مع قريش في أواخر سنة ست للهجرة، على مشهد من الصحابة، على يقين من بعضهم

(١) أُنظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، و تفسير الميزان: الآية من سورة الفتح. والكلام مفصل وطويل؛ وسيرة الرسول ٢: ٢٩٢ ـ ٢٩٣. محمد عزة دروزة. في ظلال القرآن لسيد قطب؛ والسيرة النبوية لابن هشام.

واستغراب من بعضهم، وتشكيك من آخرين، لما تضمنته بنود ذلك الصلح من فقرات بدت للوهلة الأولى أنها ليست في صالح المسلمين أو كما تصور عدد منهم، كانت عمرة القضاء وتحقق الوعد وصدقت الرؤيا..

لقد راحت ـ إضافة إلى بشائر القرآن الكريم ـ أقوال متعددة لرسول اللهﷺ يبشر فيها أن عاقبة هذا الصلح إلى خير ونصر أكيدين.. وهو ما حدث بالفعل.. و كما نجد ذلك في قولهﷺ لعمر بن الخطاب الذي بدا أكثرهم استغراباً و تشكيكاً واعتراضاً، وقولهﷺ إلى أبي جندل ولغيرهما.. خصوصاً بعد أن دخل على من حوله ممن معه من الصلح وبنوده أمر عظيم حتى كادوا يهلكون.. وسنرى أقوالهﷺ طي بحثنا هذا.

وحتى نرى هذا وغيره لا بد لنا ـ إذن ـ من العودة قليلاً إلى بنود هذا الصلح، وطريقته دون التعرض إلى مقدماته كما ذكرها غير واحد من المؤرخين، وخصوصاً الواقدي في مغازيه خوف الإطالة، لأن فتح مكة ـ وهو نصر كبير وقبله عمرة القضاء وحتى بيعة الرضوان ثم فتح خيبر وهما الأقرب زمناً من صلح الحديبية ـ كلها من نتائج ذلك الصلح الذي سمته السماء فتحاً مبيناً، وفتحاً قريباً، وما كان في

الإسلام فتح أعظم مما وقع في الحديبية بما تمخض عنه من نتائج عادت بالخير على الإسلام والمسلمين كما نرى ذلك آتياً فيما عدّده رسول الله ﷺ في ردّه على المشككين..

يقول الخبر:.. ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو، أخا بني عامر بن لؤي، إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً.

فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال:

«قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب: أن كاتب رسول الله ﷺ في هذا الصلح كان علي بن أبي طالب، فقال له رسول الله ﷺ: اكتب «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو» فجعل يتلكأ ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد، فكتب ما قالوا[1].

وفي قول: إن رسول الله ﷺ محاه بنفسه، وهو يقول: «اللهم إنك تعلم أني رسول الله»

لقد حدث هذا حين دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام فقال:

اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم.

فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم. فكتبها.

ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو؛

(١) أُنظر: الميزان في تفسير القرآن، سورة الفتح.

فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسولﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم..

فلما فرغ رسول اللهﷺ من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين...

وفي رواية أخرى لا تختلف كثيراً عن السابقة، أفاد الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد في فصل خصّه بصلح الحديبية فقال:...

نزل عليه الوحي بالإجابة إلى ذلك، وأن يجعل أمير المؤمنين عليه السلام كاتبه يومئذ والمتولي لعقد الصلح بخطّه.

فقال لعلي عليه السلام: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: ما أدري ما الرحمن.. إلاّ أنّي أظنّه هذا الذي باليمامة، ولكن أُكتب كما نكتب: باسمك اللهم فكتب: باسمك اللّهمّ.

فقال: واكتب: هذا ما قاضى عليه رسولُ الله سهيلَ بن عمرو.

فقال سُهيل: فعلام نقاتلك يا محمد؟!

فقال ﷺ: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله.

فقال الناس: أنت رسول الله.

فقال سهيل بن عمرو: لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك. اكتب: هذا ما تقاضى عليه محمد بن عبد الله، أتأنف من نسبك يا محمد؟!

فقال رسول الله: أنا رسول الله وإن لم تُقرّوا. ثم قال: اُمحُ يا علي واكتب: محمد بن عبد الله.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أمحو اسمك من النبوة أبداً! فمحاه رسول الله بيده. ثم كتب علي عليه السلام:

«هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله والملأ من قريش وسهيل بن عمرو، اصطلحوا على:

وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكفّ بعض عن بعض، وعلى أنه لا إسلال ولا إغلال، وأن بيننا وبينهم غيبة مكفوفة. وأنه من أحبّ أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، وأنّ من أحبّ أن يدخل في عهد قريش وعقدها، فعل.

وأنه من أتى من قريش إلى أصحاب محمد بغير إذن وليّه يردّوه إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردّوه إليه.

وأن يكون الإسلام ظاهراً بمكة، لا يُكره أحد على دينه ولا يؤذى ولا يُعيّر.

وأن محمداً يرجع عنهم عامه هذا، وأصحابه، ثم يدخل في العام القابل مكة، فيقيم فيها ثلاثة أيام. ولا يدخل عليها بسلاح إلا سلاح المسافر: السيوف في القِراب.

وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار، وكتب علي بن أبي طالب.

وقال عبد الله بن أبي نجيح: حدثني مجاهد، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ «أهدى عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه برة من فضة يغيظ بذلك المشركين».

هذه هي شروط الصلح التي ذكرت في المصادر التاريخية.... ثم انصرف

رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلاً، حتى إذا كان بين مكة والمدينة، نزلت سورة الفتح:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً... ﴾.

مواقف بعض الصحابة:

لقد خرج أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة قاصدين مكة، وهم لا يشكّون في وصولهم وتحقيق هدفهم، أداء العمرة وزيارة البيت الحرام للرؤيا التي رأى رسول الله ﷺ، لقد رأى في النوم ـ ورؤيا الأنبياء صادقة ـ أنه دخل البيت، وحلق رأسه، وأخذ مفتاح الكعبة...

ولما بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ إلى مكة راعهم ذلك، واجتمعوا له وشاوروا فيه ذوي رأيهم فقالوا: يريد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً فتسمع به العرب وقد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا! والله، لاكان هذا أبداً ومنّا عين تطرف، فارتاؤا رأيكم... فانتهى الأمر إلى أن يتفاوضوا مع رسول الله ﷺ وكان الصلح وفقراته..

وإذا بالصحابة وقد انقسموا في مواقفهم بين مؤيد لما يقوم به رسول الله ﷺ ومسلّم له، وبين مغتم ومغتاظ ومشكك بل ومعترض على رسول الله ﷺ، وبين من انتابته الهواجس والأوهام وظلّ حبيساً لها:

لقد سمعنا رسول الله ﷺ وهو يحدثنا عن رؤياه أنّه يدخل مكّة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة! وقد سررنا جميعاً بها!

إن تعبير الرؤيا سيتحقق وها نحن نجهز أنفسنا ونسوق هدينا بأمرٍ من رسول الله ﷺ!

لقد صددنا عن مكة! إذن سندخلها عنوة لأن رؤيا رسول الله ﷺ لا تتخلف.

ماذا جرى؟ هو رسول الله ﷺ يتفاوض معهم؟

ألم يكن البناء أن نؤدي العمرة هذا العام؟

يبدو أننا لا ندخل مكة !

ولا نعتمر !

انظر هاهو الصلح يكاد يتم بينهم !

ترى هل من الممكن أن تكون رؤيا رسول الله غير صادقة؟

فأين هذا الوعد؟

وأين صارت رؤياه؟!

ألم نسمع؟

بلى سمعنا !

إنه رسول الله وهو أعلم بما يفعل ، إنه مسدّد من السماء !

وما علينا إلا الاتباع لما يريد والتسليم بما يراه ! وهذا هو الإيمان ..

وتوالت هذه الهواجس وراحت تقلقهم وتقضّ عليهم مضاجعهم وتسلب الراحة من نفوسهم ...

وهم يسمعون أجوبة رسول الله وأقواله:

هل قلت لكم: إنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟!

لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ..

والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها ..

إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري ..

أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولن يضيعني ..

يقول الخبر:

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، أي الصلح ، وثب عمر بن الخطاب ، فأتى أبا بكر فقال:

يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال: بلى.

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟

قال: بلى.

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني».

فكان عمر يقول ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلّمت به حتى رجوت أن يكون خيراً.

وكان له كلام آخر، وهو مما جرى في أثناء هذا الصلح أن عمر بن الخطاب سأل رسول الله ﷺ فقال:

أَوَ لستَ كنتَ تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

فأجابه: بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟

قال: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوّف به.

وكلام ثالث لعمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ فأتيت النبيﷺ فقلت: ألست نبي الله؟

فقال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنيّة في ديننا إذن؟

قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري.

قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف حقاً؟

قال: بلى، أفأخبرتك أن نأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

فبينا رسولﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول اللهﷺ، وقد كان أصحاب رسول اللهﷺ خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول اللهﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول اللهﷺ في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه، ثم قال: يا محمد! قد لجت (تمت) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا؛ قال: صدقت فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أأردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم.

فقال رسول اللهﷺ:

«يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا

عهد الله وإنا لا نغدر بهم».

وكان رسول الله ﷺ مضطرباً في الحلّ وكان يصلي في الحرم، فلما فرغ من الصلح قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، وكان الذي حلقه فيما بلغني، في ذلك اليوم خراش بن أمية بن الفضل الخزاعي؛ فلما رأى الناس أن رسول الله ﷺ قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون.

وفي رواية الزهري: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا.

قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات.

فلما لم يقم منهم أحد، دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس.

قالت (أم سلمة) رضي الله عنها: يا نبي الله! أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك.

فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بيده، ودعا حالقه فحلقه

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ لأصحابه ـ بعد ما كتب الكتاب ـ: انحروا بدنكم واحلقوا رؤوسكم فامتنعوا، وقالوا: كيف ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة؟ ! فاغتم رسول الله ﷺ وشكا ذلك إلى أم سلمة فقالت: يا رسول الله انحر أنت واحلق. فنحر رسول الله وحلق، فنحر القوم على حيث يقين وشك وارتياب[1].

وعن مجاهد، عن ابن عباس، قال: «حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون.

(١) راجع: الميزان للطباطبائي، فقد ذكر المصادر هناك.

فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله المحلّقين.

قالوا: والمقصّرين يا رسول الله؟

قال: يرحم الله المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟

قال: يرحم الله المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟

قال: والمقصرين.

فقالوا: يا رسول الله فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟

قال: لم يشكوا».

وهنا موقف آخر لبعض المسلمين يضاف إلى موقف عمر بن الخطاب، موقف ينطوي على عدم قبول بما أجراه رسول الله ﷺ وأن ما وقع لم يحقق لهم ما جاؤوا من أجله فلا خير فيه لهم وما حصل ليس فتحاً..

«وفي الدر المنثور: أخرج البيهقي عن عروة قال: أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ:

والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصدّ هدينا وعكف رسول الله ﷺ بالحديبية وردّ رجلين من المسلمين خرجا.

فبلغ رسول الله ﷺ قول رجال من أصحابه: أن هذا ليس بفتح.

فقال رسول الله ﷺ: بئس الكلام. هذا أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح.

«ثم أقبل على عمر[1] فقال:

(١) انظر: المغازي ٢: ٦٠٩.

أنسيتم يوم أحد «إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لاٰ تَلْوُونَ عَلىٰ أَحَدٍ وأنا أدعوكم فِي أُخْرٰاكُمْ»؟

أنسيتم يوم الأحزاب ﴿إِذْ جٰاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زٰاغَتِ الْأَبْصٰارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنٰاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾؟ أنسيتم يوم كذا، وجعل رسول الله ﷺ يذكرهم أموراً.

قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره أو بالأمور منا. فأنزل الله سورة الفتح».

فنزلت الآية الآنفة في هذا الصدد والنبي ﷺ عائد من الحديبية إلى المدينة، وأكّدت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة ولابدّ أنّها كائنة...

تقول الآية: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيٰا بِالْحَقِّ﴾ فما رآه النّبي في المنام كان حقّاً وصدقاً.

ثمّ تضيف الآية قائلة: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ إِنْ شٰاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاٰ تَخٰافُونَ فَعَلِمَ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا﴾، وكان في هذا التأخير حكمةٌ: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾.

فلما دخل رسول الله ﷺ عام القضية وحلق رأسه قال: هذا الذي وعدتكم. فلما كان يوم الفتح أخذ المفتاح فقال: ادعوا لي عمر بن الخطاب! فقال: هذا الذي قلت لكم. فلما كان في حجة الوداع بعرفة فقال: اي عمر، هذا الذي قلت لكم! قال: اي رسول الله، ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، وقالها أبو بكر.. ولكن الناس يعجلون ـ والكلام ما زال لأبي سعيد الخدري كما في مغازي الواقدي ـ والله تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله...[1]

(١) انظر: في ظلال القرآن وكتاب المغازي، وما أخرجه البيهقي عن عروة في الدر المنثور، و الميزان في تفسير القرآن، في السورة والآية، والأحاديث في قصة الحديبية كثيرة...

وكانت العمرة

وفعلاً كانت عمرة القضاء، ووقعت طبقاً لإحدى مواد معاهدة الحديبيّة، وهو البند القائل:

«وإنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها».

إذن أن يرجع المسلمون من مكانهم دون أن يدخلوا مكة، ولهم أن يأتوا في العام المقبل معتمرين، وتخلي لهم قريش مكة لمدة ثلاثة أيام ليعتمروا فيها ولا يزعجهم أحد، ثم بعد ذلك يخرجون ويرجعون من حيث أتوا. هذا من شروط الصلح المهمة.

وأصبح من المقرر أن يؤدّي المسلمون العمرة وزيارة بيت الله في العام المقبل على أن لا يمكثوا في مكّة أكثر من ثلاثة أيام، وفي الوقت ذاته يخرج المشركون من مكّة ورؤساء قريش أيضاً ،لئلا يقع نزاع محتمل بين الطرفين، ولئلا يروا المسلمين

يؤدّون المناسك فيثيرهم منظر عبادتهم للواحد الأحد بعيداً عن آلهتهم المتعددة، التي بلغت ـ كما في بعض الأخبار ـ ٣٦٠ صنماً ووثناً في ساحة المسجد الحرام وفي المسعى وعلى الصفا والمروة وهنا وهناك من المسجد الحرام..

ما إن انتهى عامٌ على بنود الصلح، إنه عام واحد، عام لا غير من صلح الحديبية، حتى أصبح للمسلمين الحق في دخول مكة للعمرة حسب اتفاقهم مع قريش في العام السابق، فأمر رسول الله المسلمين أن يستعدوا لزيارة الكعبة، فالمهاجرون كانوا يتمنّون هذا اليوم بعد سبع سنوات بعيدين فيها عن مكة، أما الأنصار فكانوا يتمنون أيضاً زيارة الكعبة كما كانت لهم تجارة مع قريش وأموال لعلهم ينتفعون بها من تلك التجارة..

وذلك أنه لما أهلّ هلال ذي القعدة يعني في سنة سبع من الهجرة النبوية المباركة، أمرﷺ أصحابه أن يعتمروا وفقاً للبند المكتوب في الصلح، وأن لا يتخلّف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف عنهم أحد منهم إلا رجالٌ استشهدوا بخيبر ورجال ماتوا..

فخرجﷺ بعد أن استعمل على المدينة أباذر الغفاري، وقال ابن هشام: واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الديلي، وعند الواقدي: إن الذي استعمل على المدينة أبو رهم.. وأما الحاكم فيذهب إلى أن رسول اللهﷺ استخلف على المدينة عُوَيف بن الأضْبَط الدِّيلي، أو أبا رُهْم الغفاري[1].

وخرج مع رسول اللهﷺ قوم من المسلمين للعمرة، فكان مجموع من خرج في عمرة القضاء ألفين من المسلمين،

فقال رجال من حاضر المدينة من العرب:

والله يا رسول الله، ما لنا من زاد وما لنا من يطعمنا. فأمر رسول اللهﷺ المسلمين أن ينفقوا في سبيل الله، وأن يتصدقوا، وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا. قالوا: يا رسول الله! بم نتصدّق وأحدنا لا يجد شيئاً؟

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام والهامش ٤: ١٢، والمستدرك للحاكم..

قال رسول الله ﷺ: بما كان، ولو بشق تمرة، ولو بمشقص (فصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض) يحمل به أحدكم في سبيل الله. فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[1] نزلت هذه الآية في ترك النفقة في سبيل الله تعالى.

وساق ﷺ ستّين بدنة، وقد قلّدها، وأحرم من مسجد المدينة، وأحرم معه المسلمون، ولبّى ولبّى معه المسلمون، واتّجهوا بتلبيتهم نحو مكّة، وذلك بعد أن جعل على هديه ناجية بن جندب الأسلمي.

وحيث إن رسول الله ﷺ لم يكن يأمن مباغتة قريش وغدرهم به وبأصحابه في أرض مكة، أمر مائتي رجل من المسلمين بأن يحملوا معه السلاح والدروع والرماح، وحملهم على مائة فرس، وأمّر عليهم محمد بن مسلمة وأمرهم أن يتقدّموه إلى منطقة (مرّ الظهران) قريباً من الحرم وينتظروا قدومه هناك.

فلمّا علمت قريش بذلك أرسلوا من يقول لرسول الله ﷺ بأن من شروطهم عليه: أن لا يدخل مكة إلا بسلاح المسافر.

فأجابه ﷺ: «نعم لا ندخلها إلا كذلك، ولكن يكون هؤلاء قريبين منّا» وبذلك سدّ ﷺ طريق الغدر على قريش.

ثم دخل رسول الله ﷺ ومن معه بسلاح المسافر وهم يلبّون. وفعلاً ما إن علمت قريش بقدوم الرسول و الصحابة و المهاجرين و الأنصار إلى مكة حتى أسرعت بالخروج من مكة إلى رؤوس الجبال وأخلوا لهم مكة، وقيل: إنه كان ذلك لئلاّ يروه، عداوةً لله ولرسوله واحتاطت لنفسها و عسكرت أيضاً فوق التلال المحيطة بمكة وتجمّع رجالهم ونساؤهم وصبيانهم في مكة وتزاحموا؛ ليروا هذا النبي القائد يحيط به المهاجرون والأنصار، وأثار هذا التجمع الحسد والبغض والغيظ لدى بعض أئمّة الكفر، فخرج عدد منهم إلى الجبال حتى لا يروا هذا الموقف العظيم،

(١) البقرة: ١٩٤.

وتناقل بعض المغرضين أخباراً كاذبة عن أحوال المسلمين، وزعموا أن حُمّى يثرب وهنتهم وغيرها من الشائعات المغرضة التي بثوها هنا وهناك؛ ليوهنوا أمر المسلمين ويصوروهم على أضعف حال وانهم لم يجنوا من اتّباعهم لمحمد إلا الضعف والهوان والفقر..

وراحت قريش تتحدث فيما بينها أن محمداًﷺ وأصحابه في عسرة وجَهْد وشدة، حتى إذا دخل مكة صفَّ له المشركون عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه وأحوالهم، فلما دخل رسول اللهﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال:

«رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة».

ثم استلم الركن والحجر الأسود، وخرج يهرول هو ويهرول معه أصحابه.

و طاف بهم الرسولﷺ في عزّ وقوة حول الكعبة، حتى إذا واراه البيت من المشركين المحدقين به واستلم الركن اليماني مشى حتى الحجر الأسود.

حتى قال أهل مكة من الكفار ـ كما ذكرنا ذلك ـ وهم ينظرون في دهشة إلى المسلمين وقوتهم: هؤلاء هم الذين قلتم: إن حُمَّى المدينة أضعفتهم؟!

فوسوس لهم الشيطان !!

في مؤامرة خطط لها المشركون بعد أن أوحى لهم الشيطان كيده حيث تجمع كفار قريش على قعيقعان وهو: الذي يطل على الكعبة من جهة الحِجْر، وقبل أن يبدأ المسلمون بالطواف، جاء الشيطان إلى هؤلاء الكفرة المردة وقال لهم:

أين أنتم؟ ها هم المسلمون قد جاءوا، وقد أنهكتهم حمى يثرب، وأضناهم طول السفر، فلو ملتم عليهم ميلة رجل واحد لقضيتم عليهم.

وتم هذا التآمر بين الشيطان وبين أعوانه وأتباعه الغدرة للقضاء على المسلمين في ذلك الوقت وفي ذلك المكان.. وهؤلاء الكفار لو تسلطوا عليهم بالنبل من فوق الجبال بل حتى ولو بالحجارة لقضوا عليهم للأسباب التالية:

ـ لأن موقع الكعبة والمسجد الحرام منخفض بل في أخفض مكان في مكة، ترتفع الجبال من حوله، وتأتيه السيول من كل جانب، فلو أن المشركين نفذوا مخططهم لقضوا عليهم..

ـ ولأن المسلمين عزَّل، فقد اشترط عليهم أهل مكة أن لا يأتوا بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القراب.. ثم ليس هناك موالٍ قريب ليمدّ المسلمين بالمدد، والرسولﷺ كان قد جاء بالسلاح معه، وتركه في العيس، وترك حراساً عليه، ولكن لو انقضّوا عليهم فلن يجد المسلمون وقتاً ليأتوا بالسلاح!

ـ وهنا أمر مهم، وهو ما كان يعتقده المشركون فيزيد في معنوياتهم: أن المسلمين ضعاف وأنهم أصابهم الهزال والضعف من آثار حمّى يثرب، وهذا كان أمراً معروفاً في الجاهلية، فقد كانوا يعتقدون في الجاهلية أن من دخل المدينة تصيبه الحمى، فإذا أراد أن يسلم من الحمى فعليه أن يقف عند بابها وينهق ثلاث مرات، فإذا ما نهق ثلاث مرات في اعتقادهم فإنها تشرد عنه الحمى، إذن الحمى كانت مشهورة عندهم، ويقول العلماء المتأخرون: هذا أمر طبيعي؛ لأن المدينة كانت مليئة بمياه السيول، وكانت العيون تفيض على وجه الأرض، فينتج عن ذلك غدران ومستنقعات الماء، ومستنقعات الماء في العالم إنما هي حواضن للبعوض، والبعوض هو الذي يسبب الحمى وينقلها. إذاً كانت المدينة موطناً طبيعياً للحمى.

أروهم اليوم من أنفسكم قوة

فكان الحلّ من رسول اللهﷺ أنه أخبر المسلمين بتآمر المشركين مع الشيطان.. بعد أن جاءه جبريل عليه السلام وأخبره أن المشركين قد تآمروا بكذا وكذا..

وانطلاقاً مما يتمتع بهﷺ من فكر ثاقب، ونور النبوة، قال لأصحابه:

إن المشركين تآمروا عليكم بكذا وكذا بسبب كذا، فأروهم من أنفسكم اليوم قوة، يعني: اقلبوا عليهم ظنّهم، كما يقال: اعكسوا عليهم الفكرة، فهم يقولون: إنكم ضعاف بسبب الحمى، وإنكم منهكون بسبب طول السفر من المدينة إلى مكة، فإذا رأوكم كذلك فإنهم سيطمعون فيكم ويتحقق فيكم القول، ولكن اعكسوا عليهم

الفكرة، وبماذا تعكس؟ قال: «**أروهم اليوم من أنفسكم قوة**».

وليس المراد الدخول معهم بمعركة عند البيت، وإنما المراد أروهم القوة وأنتم تؤدون عمرتكم..

الاضطباع والرمل

فأمرهم بالاضطباع، وهو: جعل وسط الرداء تحت الإبط الأيمن، وطرفيه على الكتف الأيسر، يعني: شمروا، وهذه هي هيئة الإنسان الذي يريد أن يعمل، وأمرهم بالرمل، أي بالهرولة من بداية الطواف التي تكون من عند الحجر الأسود، فكانوا يرملون من عنده ويطوفون بالبيت من وراء حجر إسماعيل إلى أن يأتوا إلى الركن اليماني، يعني: ثلاثة أركان من أركان الكعبة يقطعونها هرولة، وإذا وصلوا إلى الركن اليماني ودخلوا في ظل الكعبة وسترتهم الكعبة عن أعين أهل مكة الذين ينظرون إليهم من المقابل، فيمشون على مهل ليكون ذلك أرفق بهم ليستأنفوا الشوط الثاني بنشاط، ولو كانت الهرولة في الأشواط الثلاثة كاملة فقد يظهر عليهم الضعف في الآخر، ولو كانت الهرولة في الأشواط السبعة لكان ذلك شاقاً عليهم، ولكن حينما تبدأ طائفة بالهرولة ثم تتبعها طائفة أخرى في الهرولة تكون الطائفة الأولى قد أنهت الشوط الأول، والطائفة الثالثة تبدأ، وإذا جاءت الطائفة الرابعة تكون الثانية قد انتهت، وهكذا تستمر الهرولة طيلة مدة الطواف، وإن كان الكل لم يهرول السبعة أشواط.

وكذلك أمرهم أن يمشوا ما بين الركن اليماني والحجر الأسود إرفاقاً بهم من أن يواصلوا الشوط كاملاً، وهكذا الشوط الثاني والثالث حتى لا يظهر عليهم الإعياء. وهذا الأمر بالرمل التحقيق أنه كان في عمرة القضية، وكان من أجل إظهار القوة، وإحباط فكرة المشركين.

فلم يزل رسول الله ﷺ يلبّي حتى استلم الركن بمحجنه، وكان دخوله مكة من الثنيّة التي تطلعه على الحجون، والمسلمون يطوفون معه قد اضطبعوا بثيابهم،

وعبدالله بن رواحة آخذ بزمام راحلته وهو يقول:

خـلوا بـني الكـفار عـن سبيله ... إنـــي شـهدت أنـه رسـوله
حـقاً وكـل الخير فـي سبيله ... (نـحن قـتلناكـم عـلى تـأويله
كـما ضـربناكـم عـلى تـنزيله ... ضـرباً يـزيل الهـام عـن مـقيله
ويذهل الخليل عن خليله)

هذان نسبا خطأ لابن رواحـة، لأنهـما لعـمار بـن يـاسر قـالهما في صـفين، والمشركون في مكة بعد لم يقروا بالتنزيل حتى يقتلوا على التأويل:

قـد أنـزل الرحـمن فـي تـنزيله ... بـأنّ خـير القـتل فـي سبيله
يـا رب إنـي مـؤمن بـقيله ... إنـي رأيت الحـق فـي قـبوله

ثم طاف رسول الله ﷺ بالبيت الحرام على راحلته، وطاف المسـلمون مـعه، وأمر عبدالله بن رواحة أن يردّد هذا الدعاء والمسلمون يردِّدونه معه ويقولون:

«لا إله إلاّ الله وحده وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده».

وكانت الكعبة على موعد مع الأذان

فما أن قضى رسول الله ﷺ نسكه حتى دخل البيت الحرام وما أن حـان وقت الظهر، حتى أمر بلالاً ليرتقي ظهر الكعبة مؤذناً.. وأقام ﷺ الصلاة بأصحابه عـلى مسمع ومرئ من المشركين وزعمائهم الذين هالهم هذا الموقف وأربكـهم في عـقر دارهم... إنه حقاً لأعظم موقف و فتح في الإسلام...

وما أن سمع كرمة بن أبي جهل بلالاً يصدح صوته بفصول الأذان حتى قال: لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول! فيما قال صفوان بن أمية: الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا!

وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم. حين يقوم

بلال بن أم بلال ينهق فوق الكعبة ! وأما سهيل بن عمرو ورجال معه فحين سمعوا ذلك غطوا وجوههم.

حقاً بان غيظهم وبدت أضغانهم واستغشوا ثيابهم وازدادوا غماً....

ثم إن رسول اللهﷺ لما أراد السعي بين الصفا والمروة ورأى قريشاً قد اصطفوا له لينظروا إليه وإلى أصحابه قال لأصحابه:

رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة، ثم أخذ يهرول في سعيه في المكان المعلوم الآن في المسعى، وأخذ المسلمون يهرولون معه فيه؛ ليرى المشركون جلدهم وقوّتهم.

فسعى رسول اللهﷺ ومن معه سبعاً، حتى إذا فرغ من السعي أتمّ نسكه ثم خرج من إحرامه، وكذلك فعل المسلمون.

وبعد ذلك أمر رسول اللهﷺ مائتين من أصحابه الذين قضوا مناسكهم أن يذهبوا إلى أصحابهم بمرّ الظهران، فيقيموا على السلاح حتى يأتي الآخرون فيقضون نسكهم، ففعلوا.

ولم يسمح المشركون لرسول اللهﷺ بدخول الكعبة، وقد أرسلﷺ إليهم فأبوا وقالوا: لم يكن من شرطك.

الرحيل من مكة

ولما مضى على دخولهﷺ مكة ثلاثة أيام ـ وهي المدة التي تمّ الاتفاق عليها مع قريش ـ قضى فيها المسلمون عمرتهم، وزار فيها المهاجرون ديارهم و ذويهم في مكة.. فلما انقضت المدة المتفق عليها بين الطرفين في صلح الحديبية، أتت قريش عليّاً عليه السلام فقالوا له: قل لصاحبك أخرج عنّا فقد مضى الأجل.

وفي رواية: فلما كان عند الظهر من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو، وفي قول: حويطب بن عبد العزى ونفر آخرون معه وقالوا: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنّا.

فقال النبيﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم

طعاماً فحضرتموه؟

قالوا: لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا! ننشدك الله يا محمد والعهد الذي بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت.

وكان رسول الله ﷺ لم ينزل بيتاً، وضربت له قبة من الأدم بالأبطح فكان هناك حتى خرج منها. لم يدخل تحت سقف بيت من بيوتها..

فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظة كلامهم للنبي ﷺ فقال لسهيل: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض أبيك! والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً. فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: يا سعد، لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا...

فأمر أبا رافع ينادي بالرحيل، وقال:

لا يمسينّ بها أحد من المسلمين.

فخرج رسول الله ﷺ وخلّف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها بسرف، وهي على بُعد عشرة أميال من مكّة، فبنى بها رسول الله ﷺ هنالك، ثم أدلج رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة في ذي الحجة.

والسيدة ميمونة شقيقة زوجة عمه العباس.. وأمر الزواج هذا وقع بعد أن عزم رسول الله ﷺ على ترك مكّة والعودة إلى المدينة فأقبل إليه عمّه العبّاس في رسالة من شقيقة زوجته ميمونة بنت الحارث أُخت أُم الفضل زوجة العباس، وكانت أرملة من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين، حيث قد أعجبها ما شاهدته من رسول الله ﷺ، فأرسلت إليه عبر العباس تعرض عليه رغبتها في الزواج منه، فوافق رسول الله ﷺ على ذلك، فلعله يقوّي عبر زواجه هذا أواصره بقريش ويستميل قلوبهم إليه، ويخفّف من غلوائهم وبغضائهم..ولو كان تمّ ذلك لكان له أثره في نفوذ أمر النّبي في قلوبهم غير أنّهم لم يقبلوا ذلك منه.

وقد خلّف أبا رافع ليحمل إليه ميمونة حين يمسي، وأقام بسرف، وتتام الناس، و حتى قدمت ميمونة ومن معها، وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم، حيث لاموا ميمونة على رغبتها في الزواج من رسول الله ﷺ وأرادوا

منها أن تنصرف عن ذلك، لكنها أبت عن إجابتهم وأصرّت على إرادتها، وكانت على ما قيل: هي آخر من تزوّجه رسول الله ﷺ وآخر من مات من أزواجه.

وبينما الرسول ﷺ وحوله أصحابه عائدون ،إذا بفتاة تخرج من مكة، تجري خلفهم وتنادي رسول الله ﷺ قائلة: يا عم. يا عم.

إنها ابنة حمزة سيد الشهداء الذي استشهد في أحد، فأخذها علي بن أبي طالب، وسلّمها إلى السيدة فاطمة زوجته، وإذا بزيد بن حارثة وجعفر يتنافسان على أيهما أحق بكفالتها.

فقال جعفر: ابنة عمي وخالتها زوجتي.

وقال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي.

وقال زيد: ابنة أخي؛ لأن النبي ﷺ قد آخى بين زيد وحمزة.

فحكم النبي بأن تكون مع جعفر وزوجته.

وقال: «الخالة بمنزلة الأم»..

و قد أسلم بعد هذه العمرة المباركة مباشرة جمعٌ من المشركين ممن بهرت أنظارهم قوة الإسلام و المسلمين..

و صدق الله رسولَه بما وعد به المسلمين، وقد تحقّقت رؤياه التي أراه الله تعالى في منامه قبل عام تقريباً، وكتب الله له ولمن معه دخول البيت والطواف به..

فنزلت الآية الكريمة ٢٧ من سورة الفتح، وهي تحمل بشائر عديدة، وهو ما سنراه عبر أقوال بعض المفسرين بعد قليل.

الرمل والاضطباع بين اللغة والفقه الإسلامي

الرمل لغة: الهرولة.. وفي الطواف: هو أن يمشي سريعاً يهز في مشيته الكتفين كالمبارز بين الصفين.

والاضطباع من اضطبع بالثوب ونحوه: أدخله من تحت إبطه الأيمن، وردّ طرفه، فألقاه على عاتقه الأيسر، وبدا منكبه الأيمن وتغطى الأيسر. وكان يفعل

ذلك من يريد أن ينشط للعمل[1].

مع أن سبب الرمل قد زال وهم يقولون بذلك إلا أنهم جعلوا من سنن الطواف عندهم أن يرمل الطائف في الأشواط الثلاثة الأولى في كل طواف، بأن يسرع مشيه مقارباً خطاه، ويمشي في الباقي من طوافه على هينته، ويروون أن رجلاً سأل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في خلافته وقال: يا أمير المؤمنين! في نفسي شيء، رملنا لما كنا خائفين، يعني: أوّل ما رملنا، فعلامَ الرمل الآن؟

قال: يا ابن أخي! حج رسول الله، وطاف ورمل فرملنا.

ولما رواه الشيخان عن ابن عمر: «كان رسول اللهﷺ إذا طاف بالبيت طواف الأول خبّ ثلاثاً، ومشى أربعاً، وليقل أثناء الرمل: اللهم اجعله حجاً مبروراً، وذنباً مغفوراً، وسعياً مشكوراً».

ويضطبع الذكر ـ ولو صبياً ـ في الطواف والسعي على الصحيح اتّباعاً للسنة، وهو جعل وسط ردائه تحت منكبه الأيمن وطرفيه على الأيسر. ولا ترمل المرأة ولا تضطبع. ومن سنن السعي أن يمشي ثم يرمل بين الميلين الأخضرين..[2].

والرسولﷺ حينما فتح مكة سنة ثمان، يعني: بعدها بسنة واحدة، حينما طاف بالعمرة التي أهلّ بها من حنين عند عودته من الطائف من ثقيف، رمل ومكة فتحت في العام الثامن، وهو اعتمر في نفس العام بعد الفتح، وقد أصبحت مكة في إمرة رسول الله وله عليها أمير، ومع ذلك رمل، وفي حجة الوداع سنة عشر من الهجرة حج وطاف بالبيت ورمل.

إذن، العلة كانت موجودة في أوّل رمل، وبعد ذلك انتفت تلك العلة ولم تعد موجودة، أي لم تكن العلة موجودة في الحج، ولم يكن هناك خوف ولا مؤامرة، ولكن أمر شرع فاستمرّت مشروعيته. وعلى هذا يتفقون على أن الرمل يكون في

---

(١) انظر: القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً لسعدي أبو جيب.

(٢) أُنظر: وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلّته ٣: ١٠٤ ـ ١٠٥، وغيره.

الطواف الأول الذي يعقبه سعي، وهذه قاعدة: أن كل طواف يعقبه سعي ففيه رمل، وكل طواف بدأ به الحاج أو المعتمر فإن فيه رملاً، فالذي يأتي مفرداً الحج سيطوف طواف القدوم، وله أن يسعى بعده سعي الحج، ففي طوافه رمل، والذي يأتي معتمراً فإنه سيأتي ويطوف، وطوافه ركن في العمرة، وبعده سعيٌ ففي طوافه رمل.

وأما طواف الإفاضة، فمن كان قد سعى قبل عرفات فلا سعي عليه، وعلى هذا لا رمل فيه.

وأما طواف الوداع فلا سعي بعده وعلى هذا لا رمل فيه.

وهكذا أصبح الرمل مشروعاً في أول طواف يطوفه الناسك حاجاً كان أو معتمراً، وإن كان قد انتهى سببه وانقطعت علته، إلا أنه أمر شرع وداوم عليه رسول الله ﷺ وفعله مع انتفاء العلة، وهو الذي يقول الأصوليون فيه الاعتراض أو الإيماء، وهو بقاء الحكم مع انتفاء العلة.

موقف الإمامية

وأما ما ورد من أن رسول الله ﷺ رمل في الطواف، فهو قضية في واقعة لإظهار جلادة أصحابه في الجملة، ولا يستفاد منها الاستحباب، وفي نوادر ابن عيسى عن أبيه قال: «سئل ابن عباس فقيل: إن قوماً يروون أن رسول الله ﷺ أمر بالرمل حول الكعبة فقال: كذبوا وصدقوا. فقلت: وكيف ذلك؟

فقال: إن رسول الله ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وأهلها مشركون وبلغهم أن أصحاب محمد مجهودون، فقال رسول الله ﷺ: رحم الله امرأً أراهم من نفسه جلداً، فأمرهم فحسروا عن أعضادهم ورملوا بالبيت ثلاثة أشواط، ورسول الله ﷺ على ناقته، وعبد الله بن رواحة اخذ بزمامها والمشركون بحيال الميزاب ينظرون إليهم، ثم حج رسول الله ﷺ بعد ذلك فلم يرمل ولم يأمرهم بذلك، فصدقوا في ذلك، وكذبوا في هذه».

وعن زرارة قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن الطواف: أيرمل فيه الرجل؟

فقال: إن رسول الله ﷺ لما أن قدم مكة وكان بينه وبين المشركين الكتاب الذي قد علمتم، أمر الناس أن يتجلّدوا وقال: أخرجوا أعضادكم، وأخرج رسول الله ﷺ، ثم رمل بالبيت ليريهم أنه لم يصبهم جهد، فمن أجل ذلك يرمل الناس، وإني لأمشي مشياً، وقد كان علي بن الحسين عليه السلام يمشي مشياً».

وفي نوادر أحمد بن عيسى عن أبيه عن جده قال: «رأيت علي بن الحسين عليه السلام يمشي ولا يرمل».

والمراد من الرمل: الهرولة على ما يستفاد من أقوال اللغويين[1].

وقفة

لم أجد فيما تيسّر لي من مصادر تاريخية وتفسيرية وروائية إلا الشروط التي ذكرت فيما تضمنته لائحة الصلح بين رسول الله ﷺ ومشركي مكة، والتي ذكرناها

(١) انظر: وسائل الشيعة، باب ٢٩ من أبواب الطواف، الأحاديث ٢، ٥، ٤.

أعلاه، إلا خبراً ذكره تفسير العياشي ـ وهو من تفاسير الإمامية ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

عن بعض أصحابنا، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن السعي بين الصفا والمروة فريضة هو أو سنّة؟ قال: فريضة، قال: قلت: أليس الله يقول: ﴿ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمٰا ﴾ قال: كان ذلك في عمرة القضاء، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان شرطه عليهم أن يرفعوا الأصنام، فتشاغل رجل من أصحابه حتى أعيدت الأصنام فجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. فسألوه وقيل له: إن فلاناً لم يطف وقد أعيدت الأصنام، قال:

فأنزل الله ﴿ إِنَّ الصَّفٰا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعٰائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمٰا ﴾، أي والأصنام عليهما[1].

قال الفيض (رحمه الله) في الوافي: يعني شرط على المشركين أن يرفعوا أصنامهم التي كانت على الصفا والمروة حتى ينقضي أيام المناسك، ثم يعيدوها، فتشاغل رجل من المسلمين عن السعي حتى انقضت الأيام وأعيدت الأصنام، فزعم المسلمون عدم جواز السعي حال كون الأصنام على الصفا والمروة.

والذي يبدو لي أن هذا الشرط لم يكن مع بنود الصلح، وإنما جاء بعد ذلك عندما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يسعى بين الصفا والمروة طلب من قريش أن يرفعوا أصنامهم، ويمكن أن يستفاد هذا مما جاء في تفسير القمي: «فإن قريشاً كانت وضعت أصنامهم بين الصفا والمروة وكانوا يتمسّحون بها إذا سعوا فلما كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان في غزاة الحديبية وصدّه عن البيت، وشرطوا له أن يخلوا له البيت في عامٍ قابل حتى يقضي عمرته ثلاثة أيام ثم يخرج عنها، فلما كان عمرة القضاء في سنة سبع من الهجرة دخل مكة وقال لقريش: ارفعوا أصنامكم من بين الصفا والمروة حتى أسعى، فرفعوها فسعى رسول الله صلى الله عليه وآله بين الصفا والمروة وقد

(١) بحار الأنوار ٢١: ٥٤؛ والبرهان ١: ١٧٠.

رفعت الأصنام، وبقي رجل من الطواف ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة، فجاء الرجل الذي لم يسع إلى رسول اللهﷺ فقال: قد ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة ولم أسع، فأنزل الله عزوجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ والأصنام فيه...

فهذه العبارة تبيّن أن طلب الرفع كان ورسول اللهﷺ في مكة: «فلما كان عمرة القضاء في سنة سبع من الهجرة دخل مكة وقال لقريش: ارفعوا أصنامكم من بين الصفا والمروة حتى أسعى، فرفعوها فسعى رسول اللهﷺ..»

إذن هو طلب متأخر. وإلا لو كان موجوداً ومتفقاً عليه لذكرته لائحة الصلح، وليس هناك مصلحة في إخفائه وفي عدم تدوينه ونقله، بل بالعكس هو شرط لصالح المسلمين..

ثم إن الكلام يقع في مدى استجابتهم، والذي أميل إليه أنه حتى لو طلب ذلك منهم فإنهم لم يستجيبوا له، لأنه طلب منهم أن يسمحوا له بدخول الكعبة، وهو أمر أيسر عليهم من قلع أصنامهم وإخلاء البيت أو المسعى منها لتعلقهم بها وأنها رمز عبادتهم وقدّموا في سبيلها كل غال من دماء وأموال فأبوا وقالوا: لم يكن في شرطك.. ورفضوا طلبه الآخر: «وما عليكم لو تركتموني فأعرس بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا: لا حاجة لنا في طعامك...».

ثم إن رفعها ثم إعادتها ليس أمراً سهلاً خصوصاً وأن عددها ليس بالقليل (٣٦٠ صنماً) في المسجد والمسعى مرصّصة بالرصاص، كما تذكر بعض مصادر التاريخ[1]. وأيضاً لو طلب منهم رفعها لنقلت الأخبار ذلك كما نقلت لنا طلبه لدخول البيت فهو أمر ليس بالهيّن والبسيط حتى يتغافل عنه.

ثم هناك رواية أخرى تقول: قال أبوعبدالله في خبر حماد بن عثمان: إنه كان

(١) منها المغازي ٢: ٨٣٢.

على الصفا والمروة أصنام فلما أن حج الناس لم يدروا كيف يصنعون، فأنزل الله هذه الآية، فكان الناس يسعون والأصنام على حالها، فلما حج النبي صلى الله عليه وآله رمى بها[1].

والأمر إما يحتاج إلى معالجة. وإما إلى الأخذ بهذه الرواية، خصوصاً وهي مؤيدة بما لم تختلف عليه المصادر في نقلها لبنود الصلح ولم تذكر شرط رفع الأصنام كبند من البنود المتفق عليها بين الطرفين..

وفي تفسير التبيان للشيخ الطوسي:

وإنما قال: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وهو طاعة، من حيث إنه جواب لمن توهّم أن فيه جناحاً، لصنمين كانا عليه: أحدهما إساف، والآخر نائلة، في قول الشعبي، وكثير من أهل العلم. وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.. وكان ذلك في عمرة القضاء ولم يكن فتح مكة بعد، وكانت الأصنام على حالها حول الكعبة، وقال قوم: سبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بينهما، فكره المسلمون ذلك خوفاً أن يكون من أفعال الجاهلية، فأنزل الله تعالى الآية. وقال قوم عكس ذلك:

إن أهل الجاهلية كانوا يكرهون السعي بينهما، فظنّ قوم أن في الإسلام مثل ذلك، فأنزل الله تعالى الآية. وجملته أن في الآية رداً على جميع من كرهه، لاختلاف أسبابه. ومثله في مجمع البيان: «.. فكان الناس يسعون والأصنام على حالها فلما حجّ النبي صلى الله عليه وآله رمى بها».

وفي أسباب النزول للواحدي يذكر ابن عباس في ذيل رواية عنه:

... فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، كره المسلمون الطواف بينهما ـ بين الصفا والمروة ـ لأجل الصنمين؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ...﴾.

أي إن كرههم وقع بعد فتح مكة وتكسير الأصنام لأنهما كانا مكاناً لها.

---

(١) بحار الأنوار ٢١: ٥٥؛ والبرهان ١: ١٧٠.

مع تفسير الآية المباركة

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾[1].

هذه الآية المباركة جاءت مصدقةً لرؤيا النبيﷺ، ولترسم نتيجة مهمة من نتائج قصة الحديبيّة، فحملت بشائر طالما اشرأبت لها الأعناق فاستيقنتها نفوس وانتظرتها أخرى واستعجلها قوم آخرون...

إن عمرة القضاء (هذا **الوعد الرباني النبوي**) التي أداها رسول الرحمةﷺ والمسلمون، ما كانت إلا تمهيداً لبيعة الرضوان ولفتح مكة فيما بعد، ولفتح خيبر قبلها... فقد ترك هذا الحدث آثاراً كبيرة على الوضع النفسي والاجتماعي وأيضاً السياسي لكلا الطرفين، فالوضع الإسلامي صار يتمتع أبناؤه بالقوة والتفاؤل بانتشار دينهم والقضاء على الشرك والمشركين وعلى أعدائهم المنتشرين من القبائل العربية وآخرين يحيطون بهم، وبالعودة إلى بلدهم الذي هجّروا منه قسراً وهو مكة المشرفة، وهم رافعو الرؤوس ينشدون أناشيد النصر والخلاص من الكفر والشرك والظالمين وأصنامهم وأوثانهم وطغيانهم.. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، إنّ مشاهدة قريش للعدد الكثير من المسلمين الأنصار والمهاجرين وهم محدقون برسول اللهﷺ في طوافهم وسعيهم وباقي مناسكهم، وما كانوا عليه من حماس ونشاط، لم يكن يتوقعه المشركون رغم كل محاولاتهم إجهاض مظهر العز والقوة اللتين يتمتع بهما المسلمون، وكان لذلك أبلغ الأثر في نفوسهم، فقد داخلتهم الرهبة والهيبة من المسلمين، إذ فوجئوا بأمر لم يكونوا يألفوه، بل لم يكونوا يتوقعوه..

حتى ورد عن ابن عباس: «أن المشركين لما رأوا رمَل المسلمين (والرَمَل هو

(١) الفتح: ٢٧.

الإسراع في المشي مع مقاربة الخُطا) حول الكعبة، قال بعضهم لبعض: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمّى قد وهنتهم؟! هؤلاء أجلد من كذا وكذا».

إذن، كان ولا ريب لعمرة القضاء ـ وبالشكل الذي تمت به وبالصورة التي انتهت إليها وما تركته من ثمار وانتصارات توالت بعدها ـ آثار بالغة في نفوس المشركين في الجزيرة العربية وما حولها، مهَّدت لفتح مكة فيما بعد ذلك..

إن صلح الحديبية ـ وكما وصفه الكتاب العزيز ووصف نتائجه عبر سورة سمّيت بسورة الفتح ـ كان فتحاً مبيناً وفوزاً عظيماً ونصراً عزيزاً ومغفرة وهداية ونعمة تامة...: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلله جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً * وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً * وَلله جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[1].

كما أن هناك دلالات وأهداف وبصمات كبيرة من هذا الحدث تركه على مسيرة الدين وأهله من خلال الإعداد الصحيح للمسلمين، ليثمر هذا الإعداد عن قوة معنوية وقوة مادية على حد سواء تثبت قواعد المؤمنين، وإبرازهما في الوقت المناسب لتتحقق لهم هيبة ورهبة في قلوب أعدائهم المتربصين بهم، وتغيظ جميع أعدائهم والمتآمرين عليهم وتضعف معنوياتهم...

(١) الفتح ١ ـ ٩.

هذا وإن ما أصاب بعض الصحابة ممن سمعوا رؤيا رسول الله ﷺ وقد كانوا مستبشرين بتحققها من تشكيك وارتياب آذى رسول الله ﷺ بعد الذي حدث في الحديبية من الصلح ،وعدم تحقق الرؤيا في سنتها ، وهم قد استعدوا لدخول مكة لولا منع المشركين ، وما حصل من اتفاق وإبرام صلح ، ومنه أن لا يدخلوا المسجد الحرام إلا في عامهم القادم . يؤكد الله تعالى لهم أن هذه الرؤيا منه وهي صادقة ، وأنها لا تتخلف بل هي واقعة بعد حين ، وأنها تحمل نتائج كبيرة وانتصارات ، وأن خوفهم وهلعهم لا مبرر له إلا ضعف إيمانهم وعدم وعيهم لخطوات رسول الله ﷺ ولما يأتيهم به فثقلت على نفوسهم تفاصيلها وما انتهت إليه من بنود .. فأعادوا النظر بوضعهم الإيماني هذا ، وهي درس بليغ لهم يربيهم على الطاعة المطلقة لله تعالى ولرسوله وعلى الامتثال البعيد عن التردد ، وعلى الاستسلام الخالي من الارتياب .. وأعلنوا ندمهم على ما ظهر منهم وما سبّبوه من ألمٍ لرسول الله ﷺ . وأن الطاعة الصادقة يجب أن تتجذر في قلوبهم ونفوسهم ، وأنها من أهم واجبات الإيمان بغض النظر عن العواقب ودون النظر إلى ما يترتب من ربح أو خسارة ...

فيما تلقى المنافقون الذين أضمروا السوء وأن لا عودة للرسول ولمن معه إلى المدينة وإلى أهليهم فهم ذاهبون إلى حتفهم .. ولم يعلموا أن الله تعالى ناصرٌ نبيه ، وهو الحامي له وللصادقين من عباده . تلقى هؤلاء ضربةً موجعة أفقدتهم صوابهم وخيّبت تقديراتهم وآمالهم وأفشلت خططهم ...

مع أقوال بعض المفسرين

إن لصلح الحديبية دوراً كبيراً ورائداً في تهيئة الأجواء لدخول المسلمين مكة والمكوث فيها ثلاثة أيام يؤدون مناسك عمرتهم بطمأنينة وسلام ، ثم يعودون أهليهم ويتفقدون منازلهم ... ، كل هذا كان يجري على مسمع ومرأى من مشركي مكة ، وهم صاغرون .. وهو ما نراه في أقوال عدد من المفسرين ..

ولنبدأ مع ما ذهب إليه صاحب الميزان حيث يقول:

... اللام في ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ ﴾ للقسم، وقوله: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ جواب القسم.

وقوله: ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ حال من الرؤيا والباء فيه للملابسة، والتعليق بالمشية في قوله: ﴿ إِنْ شَاءَ اللهُ ﴾ لتعليم العباد

والمعنى:

أقسم لقد صدق الله رسوله في الرؤيا التي أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجدَ الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شرّ المشركين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين، لا تخافون المشركين.

وقوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين، والمراد بقوله: ﴿ من دون ذلك ﴾ أقرب من ذلك والمعنى: فعلم تعالى من المصلحة في دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه ولم تعلموه، ولذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحاً قريباً ليتيسّر لكم الدخول كذلك.

ومن هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديبية؛ فهو الذي سوّى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين ويسّر لهم ذلك، ولولا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال وسفك الدماء، ولا عمرة مع ذلك لكن صلح الحديبية وما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل.

ويأخذ السيد الطباطبائي من هذا دليلاً على أن المراد بالفتح الوارد في الآية هو صلح الحديبية لاغيره، حيث يقول:

ومن هنا تعرف أن قول بعضهم: إن المراد بالفتح القريب في الآية فتح خيبر بعيد من السياق، وأما القول بأنه فتح مكة فأبعد.

وسياق الآية يعطي أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبيﷺ، فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبيﷺ من دخولهم المسجد آمنين

محلّقين رؤوسهم ومقصرين، أنهم سيدخلونه كذلك في عامهم ذلك، فلما خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية وصدّوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم في الرؤيا فأزال الله ريبهم بما في الآية.

ومحصله: أن الرؤيا حقة أراها الله نبيه ﷺ وقد صدق تعالى في ذلك، وستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون، لكنه تعالى أخّره وقدم عليه هذا الفتح، وهو صلح الحديبية ليتيسّر لكم دخوله؛ لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، تقدم تفسيره في سورة التوبة الآية ٣٣، وقوله: ﴿وَكَفىٰ بِاللهِ شَهِيداً﴾ أي شاهداً على صدق نبوته والوعد أن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقة، فالجملة تذييل ناظر إلى نفس الآية أو الآية السابقة[1].

أما صاحب تفسير الأمثل، فمما يقوله عند تفسير الآية: ينبغي الالتفات إلى أنّ «اللام» في ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ هي لام القسم، وأنّ «النون» في آخر الفعل هي للتوكيد، بأنّ هذا هو وعد إلهي قطعي في المستقبل وتنبؤ معجز صريح عن أداء المناسك والعمرة في كامل الأمان ومنتهى الطمأنينة، وكما سنبيّن كان هذا التوقّع والتنبّؤ صادقاً في شهر ذي القعدة ذاته من السنة المقبلة، وهكذا أدّى المسلمون مناسك العمرة بهذه الصورة!

التعبير بـ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ كما يعتقد كثيرٌ من المفسّرين هو إشارة إلى صلح الحديبيّة الذي عبّر عنه القرآن بالفتح المبين، ونعرف أنّ هذا الفتح كان السبيل إلى دخول المسجد الحرام في السنة التالية.

على حين أنّ جماعة آخرين يعتقدون أنّ ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ إشارة إلى «فتح خيبر».

---

(١) انظر: الطباطبائي، الميزان، سورة الفتح، الآية ٢٧.

وبالطبع فإنّ كلمة ﴿ قَرِيباً ﴾ فيها تناسبٌ أكثر مع «فتح خيبر»؛ لأنّه كان «تحقّقه العيني» بعد هذه الرؤيا في فترة أقل زمناً من فتح مكّة بعدها، ثمّ بعد هذا فإنّ القرآن يقول في الآية (١٨) من هذه السورة ذاتها عند الكلام على بيعة الرضوان: ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾. وكما قلنا ويعتقد بذلك أكثر المفسّرين أيضاً أنّ المراد من هذا الفتح هو «فتح خيبر» والقرائن الموجودة... وفي تفسير علي بن إبراهيم رواية تشير إلى هذا المعنى أيضاً..[1]

جملة: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ إشارة إلى واحد من مناسك العمرة وآدابها وهو «التقصير»، و به يخرج المحرم من إحرامه، وقد استدل بعضهم بالآية في التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير في تقليم الأظافر والحلق، لأنّ الجمع بينهما ليس واجباً قطعاً.

جملة: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ إشارة إلى مسائل مهمّة مطوية في صلح الحديبيّة، وقد انكشفت بمرور الزمن إذ قويت قواعد الإسلام وانتشر صوته وترامت أصداؤه في كلّ مكان وطُويت نزعة الحرب عند المسلمين، واستطاعوا أن يفتحوا «خيبر» بفارغ البال وقرار البلبال، وأرسلوا المبلّغين إلى أطراف الجزيرة العربية، وبعث النّبيﷺ رسائله إلى أعاظم رؤساء الدول آنئذ، فهذه مسائل كان الفرد المسلم لا يعرفها لكنّ الله كان يعلمها...

نواجه في هذه الآية الكريمة موضوع الرؤيا، وهي رؤيا النبيﷺ الصادقة التي تعدّ (غصناً من غصون) الوحي، وهي مشابهة لقصة رؤيا إبراهيم عليه السلام وذبح ولده، الآية تحكي عن هذا الفتح أيضاً، ومع الالتفات إلى أنّ الآية محل البحث تنسجم مع تلك الآية يبدو أنّ الآيتين بمعنى واحد..[2].

والآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التي أخبر عنها القرآن، وهي شاهد على أنّ هذا الكتاب سماويّ، وأنّه من معاجز النّبي الكريم حيث يخبرُ قاطعاً

(١) لاحظ: نور الثقلين ٥: ٧٦.

(٢) انظر: الصافات: ١٠٢.

عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام في المستقبل القريب وعن الفتح القريب قبله أيضاً، وكما نعلم فإنّ هذين التنبّؤين قد حدثا فعلاً..

وحول هذا المقطع من الآية المباركة ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ...﴾ وتعلّق الوعد على المشيئة الإلهية رغم أن الله تعالى هو الخالق للأشياء كلها وهو العالم بها قبل وقوعها وهو المخبر بوقوع العمرة، أي ما وجه دخول ﴿إِنْ شَاءَ اللهُ﴾ في إخبار الله عز وجل؟

وهنا أقوال:

١ ـ إنه حكاية قول الملك للرسول صلى الله عليه وآله.

٢ ـ إن هذا التعليق تأدب بآداب الله تعالى، وإن كان الموعود به محقق الوقوع. أو أن يعلّق الله تعالى عدته بالمشيئة تعليماً لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدبين بأدب الله ومقتدين بسنته ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾.

٣ ـ استثنى الله فيما يعلم ليستثني الناس فيما لا يعلمون.

٤ ـ «إن» هنا بمعنى «إذ» التي تذكر لتعليل ما قبلها ـ وهو زعم الكوفيين ـ أي إذ شاء الله حين أرى رسوله ذلك، وعن أبي عبيدة ومثله قوله: وأنتم الأعلون إن

كنتم مؤمنين، قال معناه: إذ كنتم.. وقالوا: وليست شرطية؛ لأن الشرط مستقبل وهذه القصة قد مضت.

٥ ـ إن الاستثناء من الدخول، وكان بين نزول الآية والدخول مدة سنة، وقد مات منهم أناس في السنة، فيكون تقديره لتدخلن كلكم إن شاء الله، إذ علم الله أن منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها، فأدخل الاستثناء لأن لا يقع في الخبر خلف. وقيل: إن الاستثناء داخل على الخوف والأمن، فأما الدخول فلا شك فيه، وتقديره لتدخلن المسجد الحرام آمنين من العدو إن شاء الله. وهذه الأقوال الثلاثة كما يذكرالطبرسي في تفسيره مجمع البيان للبصريين.

ويقول سيد قطب في ظلاله:

ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان وهو يقول لهم:

﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ... ﴾ فالدخول واقع لأن الله أخبر به، ولكن المشيئة يجب أن تظلّ في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيّدها شيء حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية. والقرآن يتكئ على هذا المعنى ويقرّر هذه الحقيقة، ويذكر هذا الاستثناء في كل موضع، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله. ووعد الله لا يخلف. ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق. إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين، ليستقرّ منهم في أعماق الضمير والشعور.

أما صاحب تفسير الأمثل فيقول:

ولعلّها نوع من تعليم العباد لكي يعوّلوا على مشيئة الله عند الإخبار عن المستقبل وأن لا ينسوا إرادة الله، وأن لا يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلّين عنه. وربّما هي إشارة للظروف التي يهيّؤها الله لهذا التوفيق «توفيق الله المسلمين لزيارة بيته في المستقبل القريب» والبقاء على خط «التوحيد والسكينة والتقوى»...

كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض المسلمين الذين تنتهي أعمارهم في هذه

الفترة والفاصلة الزمانية ولا يوفّقون إلى زيارة بيت الله، والجمع بين هذه المعاني كلها لا مانع منه أبداً...

وختاماً هذا تلخيص لما ورد عن بعض المفسرين إضافة لما ذكرناه طي المقالة من أقوالهم:

لقد رأى النّبيﷺ في المدينة رؤيا أنّه يدخل مكّة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدّث أصحابه بذلك، غير أنهم أصيبوا بإحباط وارتياب بعد أن منعتهم قريش ووقع الصلح.

فكان جواب النّبي لهم: هل قلت لكم: إنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟

فنزلت الآية الآنفة في هذا الصدد والنبي عائد من الحديبية إلى المدينة، وأكّدت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة ولابدّ أنّها كائنة... تقول الآية: ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ** ﴾، فما رآه النّبي في المنام كان حقّاً وصدقاً.

ثمّ تضيف الآية قائلةً: ﴿ **لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً** ﴾ وكان في هذا التأخير حكمةٌ: ﴿ **فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً** ﴾.

اللام في ﴿ **لَتَدْخُلُنَّ** ﴾ هي لام القسم، و النون للتوكيد، وهو وعد إلهي قطعي الوقوع ويتضمن نبوءة عن أداء المناسك والعمرة بأمان وطمأنينة.. وهو أمر غيبي وبالتالي فهو شاهد على أنّ هذا الكتاب سماويّ وأنّه من معاجز النّبي الكريم حيث يخبرُ قاطعاً عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام في المستقبل القريب وعن الفتح القريب «**صلح الحديبية أو فتح خيبر**»، و أنّ هذين التنبّؤين قد وقعا فعلاً..

جملة ﴿ **محلّقين رؤوسكم ومقصّرين** ﴾ إشارة إلى واحد من مناسك العمرة وآدابها، وهو «التقصير» وبه يخرج المحرم من إحرامه، وقد استدل بعضهم بالآية في التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير في تقليم الأظافر والحلق، لأنّ الجمع بينهما ليس واجباً قطعاً.

﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ مالم تعلموا من الخير والصلاح وما ستثمر هذه الخطوة وهذا الحدث من خير عميم ونصر كبير وعزة للإسلام والمسلمين..

وأما عمرة القضاء فهي العمرة التي أدّاها النّبيﷺ مع أصحابه بعد صلح الحديبيّة بعام، أي في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة (على وجه الدقّة بعد عام من منع المشركين أن يدخل الرّسول وأصحابه مكّة).

وجاءت هذه العمرة طبقاً لإحدى مواد كتاب صلح الحديبيّة التي أصبح من المقرر بموجبها أن يؤدّي رسول اللهﷺ ـ ومعه المسلمون ـ العمرة وزيارة بيت الله الحرام ليس في عامهم هذا عام الصلح بل في العام المقبل، على أن لا يمكثوا في مكّة أكثر من ثلاثة أيام، وفي الوقت ذاته يخرج المشركون ورؤساؤهم من مكّة أيضاً. حتى لا يرى المشركون شيئاً قد يثيرهم وعبادة قد تغيظهم ونداء أو شعاراً قد يغضبهم.. ودرءاً لما قد يقع من احتكاك بينهم و اختلاف، وبالتالي قد يكون ذلك كله سبباً لنزاع مسلّح بين الفريقين...

لقد أحرم النّبيﷺ في السنة المقبلة وأصحابه ومعهم جمالهم المساقة للهدي، وتحرّكوا جميعاً حتى بلغوا أطراف مرّ الظهران وضواحيها، وعندها بعث النّبيﷺ ما كان عنده من أسلحة وخيول تستلفت النظر مع الصحابي محمّد بن مسلمة، فلمّا وقعت عيون المشركين عليها أصيبوا بفزع وهلع وانتابهم خوف شديد وظنّوا أنّ رسول اللهﷺ يريد أن ينقض العهد بمدته عشر سنين و قتالهم وسرعان ما انتشر الخبر في مكة.

غير أنّ النّبيﷺ حين وصل منطقة قريبة من مكّة، أمر أن توضع الأسلحة من السهام والرماح وغيرها من الأسلحة في منطقة تدعى يأجج، ودخل هو وأصحابه مكّة بالسيوف المغمدة في قرابها.

فلمّا رأى أهل مكّة من النّبي ما رأوا فرحوا؛ إذ وفى النبي بوعده، فكأنّ النبي بعمله هذا وجّه إنذاراً لمشركي مكة إن سولت لهم أنفسهم أمراً فنقضوا العهد وأرادوا سوءاً فسيجدون قوة عظيمة تقهرهم وتفشل عليهم تآمرهم.

فخرج رؤساء مكّة وأتباعهم من مكة لئلاّ تتأثر نفوسهم بما يرونه من عـزة المسلمين والكيفية التي يؤدون بها مناسك عمرتهم...

ومع هذا ظلّ جمع منهم ـ رجالاً ونساءً وأطفالاً ـ مجتمعين على سطوح مكة وتلالها القريبة من المسجد وفي الطرقات المـؤدية إليه وحـول الكـعبة ليشـاهدوا رسول الله محمداًﷺ وقد عاد إلى مدينته بقوة وانتصار في تظاهرة المسلمين الذين يحيطون به.. فعاملهم بلطف ومحبة وحنين من جهة، ومن جهة أخرى أمر المسلمين أن يسرعوا أثناء الطواف وأن يزيحوا الإحرام عن أكتافهم قليلاً لتبدو علائم القدرة والقوّة فيهم وأن تترك هذه الحالة في أفكار أهل مكّة وأنفسهم تأثيراً كبيراً ودليلاً حيّاً على قوة المسلمين وحكمتهم!

وعلى كلّ حال، فإنّ «عمرة القضاء» كانت عبادة، كما كانت في الوقت ذاته عَرضاً «للعضلات المفتولة»، وينبغي القول: إنّ «فتح مكّة» الذي تحقّق بـعد سـنة أُخرى كان قد نثر بذره في هذه السنة وهيّأ الأرضية لاستسلام أهل مكّة للـفاتحين (المسلمين).

وكان هذا الأمر مدعاةً لقلق رؤساء قريش إلى درجة أنّهـم بعثوا رجلاً بـعد مضي ثلاثة أيّام إلى النّـبي يـطلب مـنه أن يـغادر بـسرعة هـو وأصـحابه مكّـة طبقاً للمعاهدة...

ومن الطريف هنا أنّ النّبي تزوّج أرملةً من نساء قريش وكانت مـن أقـرباء بعض رؤسائهم المعروفين، وذلك ليشدّ أواصره بهم ويخفّف من غلوائهم وبغضائهم.

وحين سمع النبي اقتراحهم بالمغادرة قال: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه». قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنّا.

ولو كان تمّ ذلك لكان له أثره في نفوذ أمر النّبي في قلوبهم، غير أنّهم لم يقبلوا ذلك منه...[1].

(١) هذا موجز لما ذكر في تفسير الأمثل للشيخ مكارم ملخصاً لما جاء في ظلال القرآن ومجمع البيان..